

تاريخ الإرسال (2020-03-03)، تاريخ قبول النشر (2020-08-22)

د. محمد محمود حرب

اسم الباحث:

كلية العلوم التربوية والآداب / الأردن

اسم الجامعة والبلد:

* البريد الإلكتروني للباحث المرسل:

E-mail address:

Momdharb72@yahoo.com

التوجيه الاعتزالي لسخرية الجاحظ التربيع والتدوير أنموذجاً

<https://doi.org/10.33976/IUGJHR.29.2/2021/5>

الملخص:

أدت السخرية منذ القدم دوراً مهماً في الجانب الاجتماعي، فهي المنظم والمقوم لحياة الفرد والجماعة، أما عند الجاحظ فهي تؤدي دوراً فلسفياً بالإضافة إلى دورها الحقيقي في الإضحاك. قامت هذه الدراسة على القراءة الوصفية التحليلية في رسالة التربيع والتدوير؛ إذ استطاع الجاحظ أن يرسم صورة (كاريكاتورية) لشخصية أحمد بن عبد الوهاب تحتج إلى جهد كبير من أجل الربط بين أجزائها، فما رسمه بالكلمات قد يعجز عنه أحسن الرسامين في العالم، مع حفاظه على روح الدعابة بقي الجاحظ ذلك الفيلسوف الذي يستطيع أن يوظف الأدب والفن لخدمة فكره واعتزاله. ورد في الرسالة مجموعة كبيرة من الأسئلة الموجهة إلى أحمد بن عبد الوهاب التي أخذت حيزاً كبيراً من نص الرسالة أراد منها الكاتب أمرين: استعراض علمه وفضله وقدرته العلمية والمعرفية الموسوعية، وبيان جهل المقابل: الشخص، والفرقة ومدى جهله وسخف مذهبه، واستطاع في نهاية الأسئلة أن يخلص إلى غاية الرسالة ويعلن عن هدفه في الطلب منه ترك الرفض والانتفاء للمعتزلة. بذلك جمع الجاحظ بين السخرية كفن أدبي وبين فكره الاعتزالي، وجعل الضحك يخدم الاعتزال، وقلما تجد مفكراً مؤمناً بقضيته كإيمان الجاحظ باعتزاله الذي صهر ووظف كل أشكال المعرفة لخدمة مذهبه.

كلمات مفتاحية: السخرية، رسالة التربيع والتدوير، الجاحظ.

Al-Jahiz's Sarcasm Guidance on Isolation Al-tarbe' and AL-tadweer as an example

Abstract:

Sarcasm played an important role in the social aspect since ancient times as it is the organizer and constituent of the individual's and community's life. As for Al-Jahiz, it plays a philosophical role in addition to its actual role in making people laugh.

This study was based on a descriptive and analytical reading in the letter of Al-tarbe' and AL-tadweer; as Al-Jahiz was able to draw a (caricature) of Ahmed bin Abdel-Wahhab's character, which needs great effort to put its pieces together. The greatest painters in the world may not be able to draw what he drew with his words. Keeping his sense of humor, Al-Jahiz remained that philosopher who could use literature and art to serve his ideas and isolation.

There were a large number of questions in the letter addressed to Ahmed bin Abdul Wahhab, which took a big part of it. He wanted two things out of the letter: show off his knowledge, what he has done, scientific and cognitive encyclopedic ability, as well as show the ignorance of the other party: person, group and extent of his ignorance and the absurdity of his ideology. At the end of the questions, he was able to conclude the aim of the letter and announced his goal in asking him to leave the Rejectionists and belong to the Mu'tazila.

With that, Al-Jahiz combined sarcasm as a literary art and his thoughts, and he made laughter serve isolation, and you hardly find a thinker who believes in his case the way Al-Jahiz's believes in his isolation, who dedicated all forms of knowledge to serve his ideology.

Keywords: sarcasm, Al-tarbe' and AL-tadweer, Al-Jahiz

المقدمة:

يرتبط مفهوم السخرية بالضحك عند الإنسان، وهو مطلوب لذاته، فلا يخلو تراث أمة من الأمم من النوادر والطرائف الأدبية التي تنبع من عمق التجربة الإنسانية، وإذا كان الأديب نتاج مجتمعه فمن الطبيعي أن تشغل السخرية والطفرة حيزاً منه؛ لأنها بمفهومها الواسع تشغل حيزاً ليس بالقليل في حياة الناس اليومية، فما زلنا نقرأ في كتب التراث عن المجالس التي كانت تعقد من أجل التندر وسرد الأفاصيص والنكات المحببة للناس؛ فيفضلون نقلها وتداولها، بل وصل الأمر إلى تسجيل هذه المواقف والحكايات في كتب تخصصت في هذا الجانب من الأدب.

لم يخلُ تراث العربية من هذا النوع من الأدب الساخر، وعند دراسة هذا النوع من الأدب لا بد من الوقوف طويلاً عند الجاحظ الأديب اللامع صاحب الطرائف اللامعة في سماء العربية والذي خط لها منهاجاً خاصاً حتى ضرب النادرة على نفسه، وكذلك أراد أن يقال بلكنتها دون تعديلها إلى الفصيحة خوفاً من ضياع رونقها.

فقد برع الجاحظ في هذا الفن براعة جعلت الجميع يشهد له بذلك وسمحت للنقاد المحدثين بالوقوف طويلاً عند هذه الظاهرة بالدرس والتحليل؛ ولذلك يتوجه البحث لدراسة رسالة من رسائله المشهورة في هذا الباب وهي رسالة التربيع والتدوير التي أنشأها ساخرًا من الوزير أحمد بن عبد الوهاب أحد كتبة الدواوين أيام خلافة الواثق.

تقوم هذه الدراسة على القراءة الوصفية التحليلية في رسالة التربيع والتدوير، وذلك من خلال دراسة الرسالة ووصف موضوعاتها العامة والجزيئية المنوعة حسب ورودها في النص مع الدراسة التحليلية المفصلة لطبيعة رسم شخصية أحمد بن عبد الوهاب من قبل الجاحظ في هذه الرسالة والتركيز على الرسم الساخر؛ لأن موضوع السخرية هو هدف الرسالة الأساس ومحورها العام.

ستعتمد الدراسة على رسالة التربيع والتدوير المصدر الأساس لها بالإضافة إلى الاستعانة ببعض المراجع التي تناولت السخرية عند الجاحظ ككتاب سخرية الجاحظ من بخلاته، وفلسفة الضحك وغيرها مما يعين على تناول الموضوع من جوانبه جميعها بشكل يكفل الإمام بنظرية الجاحظ في السخرية من خلال رسم شخصية ابن عبد الوهاب في هذه الرسالة.

سخرية الجاحظ

رسالة التربيع والتدوير نص أدبي لا يمكن وقفه على قراءة واحدة، أو احتكار فهمه من زاوية محددة، بل على العكس هو نص مفتوح للقراءة وقابل للقراءات المتعددة حسب زاوية الرؤية والنهج الذي تنظر منه إلى النص، واختلاف مرامي الجاحظ في النص ممكنة وواردة، فبين قارئ وآخر يختلف الفهم وتتعدد زوايا النظر، فجاءت هذه الدراسة لتقدم زاوية جديدة في النظر إلى أحد نتاجات الجاحظ الأدبية، ولتختص بجانب محدد وهو السخرية من خلال طريقة رسم شخصية أحمد بن عبد الوهاب.

يمكن تصنيف السخرية عند الجاحظ في الرسالة على وفق أنماط محددة متميزة في بناء النمط الفني للسخرية عنده، وليس النمط اللغوي وحده ولأمكن دراسة السخرية عنده من منحيين أو نوعين: سخرية بأسلوب خبري، وسخرية بأسلوب إنشائي قائم على الاستفهام بشكل رئيس، وهو تقسيم نحوي لا يلفت النظر إلى الجانب الفني الذي يحمل في داخله بقدر ما يسלט الضوء على اللغة وقضايا البلاغة والبيان ودراستها وفق أنماط تعليمية؛ لذلك كان الوقوف عند حد السخرية وطبيعتها في ذاتها الأقرب لقرع بابها، وأسهل في تناولها والتعريف بفنونها الجاحظية.

وتقوم السخرية بوظائف عدة على المستوى الاجتماعي والفكري والفلسفي والسياسي، كما ترتبط بالجانب الديني والعقدي، على أنها أكثر ما ترتبط بالجانب الاجتماعي؛ لكونها وسيلة فعالة للتواصل بين الأشخاص والجماعات وقدرتها الفائقة على نقد السلوك الاجتماعي بطرق مقبولة، فهي تؤثر في إبراز العيوب والمظاهر السلبية وتضخيمها بصرف النظر عن مرتكب السلوك.

والسخرية مهمة في هذا البعد الذي يصور المجتمع، بما فيه من خير وشر، وهو قادر على الكشف عن التركيبة الفكرية والاجتماعية والطبقية في المجتمع، ذلك أن السخرية نتاج نظام اجتماعي قائم بطبيعته كطبيعة الإنسان متغيرة معقدة في تركيبها

تحوي ألوانا متناقضة، وعلى الرغم من ذلك كله فهي مرآة صادقة في حمل صورة المجتمع غير معدلة، أو محسنة تظهر البنية الاجتماعية على تركيبها الحقيقية دون ممارسة أو مدهانة، فإذا كانت "السلطة قادرة على التحكم في كتابة التاريخ، فإن السخرية خرجت من طاعة السلطة لتظهر المجتمع على حقيقته مكشوفاً عارياً، وهذا ما يجعلها صادقة ومعبرة عن ضمير الشعب"¹.

كما تعكس الصراع الطبقي والمكانة التراتبية في المجتمع، فعادة ما تقع السلطة أو من يمثلها تحت وطأة السخرية من خلال أساليب الفكاهة والضحك، كما أن لدى الأسلوب الساخر قدرة غريبة على القبول والانتشار، أما رغبة في إثبات الضحك، أو بيان موطن الخلل.²

ومما يزيد في فعالية السخرية أن تكون كالريح المرسله عفوية غير مؤطرة بقواعد أو نصوص صارمة فلا تشرف عليها سلطة أو جهة أو تمولها فئة، إنما هي أداة تملك قوة دفع ذاتي قابلة لاختراق الأسوار وأشد الحراسات والسير داخل المجتمع كسير النار في الهشيم؛ لأن الناس يتقبلونها بشوق وولع .

وهذا سبب مهم من أسباب خطرها على الأمم والشعوب، فهي تسير على غير هدى، أو تخطيط، ولا يمكن السيطرة على خط سيرها داخل المجتمعات الإنسانية، فهي سلطة قائمة بذاتها، وهذا يظهر أنها سلاح ذو حدين، فسرعة انتشارها التي تميزها عن غيرها من أنواع النقد والأدب، مع قدرتها على حمل الأفكار والاتجاهات الثقافية وغيرها إلى شريحة هائلة من أفراد المجتمع، وقد يصل إلى الجنس البشري كافة، وهذا ما يضاعف من سلطتها وخطرها، لذلك تقف السلطة السياسية وغيرها من أشكال السلطات الدينية والثقافية وغيرها عاجزة أمام هذا الشكل من العدو غير المرئي فلا تستطيع قمعه ولا تكميمه أو الإجهاد عليه، فلا يعرف منبعه فيجفف، ولا يستطيع ملاحقة مصدره فيقمع، فإن كانت صديقا - وقلمًا تكون - فنعمة الصديق، وإن كانت غير ذلك فالله المستعان.

كما لا يمكن تجاوز الدور الايجابي النفسي الذي تؤديه في حياة الإنسان، فهي تروح عن النفس لما تعرضه من مشكلات الحياة اليومية، فتخفف من الضغوط النفسية التي يشعر بها الفرد من نتاج الحياة اليومية الرتيبة، فهي تعمل على كسر الرتابة المقيتة للنفس الإنسانية؛ فيكون "هدفها إثارة لاستهواء القراء وحرصا على استجلاب رغبتهم"³ ودفع السامة والملل عنهم.

فتشكل لدى الفرد شيئاً من الاستقرار النفسي والعاطفي من خلال إظهار الخطأ وبيانها، فتحدث لدى الإنسان جانبين مهمين: الضحك وهو أمر مطلوب لذاته، والنقد الاجتماعي للشخصيات والسلوكيات غير المرغوبة فيصح المعوج، وقد تؤدي مهمة أخرى وهي جانب تعليمي يبني عليه الحكمة لعدم الوقوع في الأخطاء والمزالق كما وقع فيها أصحاب المواقف الساخرة .

فالضحك تأديب قبل كل شيء، فقد وجد ليشعر صاحبه بشعور الخزي، ولينتمم المجتمع ممن يتناولون على تقاليده وأحكامه، لهذا يحرص الإنسان على إصلاح عيوبه قبل أن يصبح مثار لسخرية الآخرين⁴.

لقد تميزت ظاهرة السخرية عند المعتزلة عن الأشكال الأدبية الأخرى التي كتبوا فيها، فهم لديهم الدوافع التي تدفعهم للتهكم من الناس وهذا لا يصدر من ضغائن شخصية أو هجاء وإنما هدفهم توجيه الناس إلى عيوبهم ليصلحوها، وبذلك نلاحظ أن سخريتهم لا تنطلق من حقد أو كراهية بقدر ما تنطلق من فلسفة خاصة هدفها تصويب الأخطاء التي لا تتوافق مع فلسفتهم⁵.

¹ محمد ، فراس عمر أسعد .(1993) . السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم (1948-1993). رسالة ماجستير . جامعة النجاح. ص7-11.

² بطيش، سيمون.(1983) . الفكاهة والضحك في أدب مارون عبود . الطبعة الأولى . ص31-34. وعبد الحميد، شاكرا (1982). الفكاهة والضحك رؤية جديدة. سلسلة عالم المعرفة. الكويت . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.يناير 2003. ع 289. ص220-221. و الهوال، حامد عبده(1982). السخرية في أدب المازني. مصر. الهيئة المصرية العامة للكتاب.ص8.

³ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الخلاء. تحقيق طه الحاجري. الطبعة الثامنة. مصر: دار المعارف. ص39

⁴ برجسون، هنري (2001). الضحك البحث في دلالة الضحك. ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مهرجان القراءة للجميع ص126-127.

⁵ بليغ ، عبد الحكيم. أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، مصر، مكتبة نهضة مصر .

والجاحظ صاحب مقولة " والله ما تركت النادرة ولو قتلنتي في الدنيا، أو أدخلتني النار في الآخرة " وهذه العبارة على صغرهما تبين لنا فكر الجاحظ من النادرة والسخرية فهي طريق ومنهج ينتهجه الجاحظ في حياته وثقافته، ولا يمكن أن يستغني عنها للأدوار السابقة التي تحدثنا فيها عن دور النادرة في نقد السلوك الاجتماعي وسرعة انتشارها، "الجاحظ فيلسوف ساخر، وفنان ماهر؛ لأن الفكاهة لديه فن وفلسفة" ⁶. فهو " مطبوع على حبّ التهكم واصطناع الفكاهة، فقد رزق حسن اكتشاف الجوانب المضحكة في طبائع الناس، كما رزق روحاً تهكمية نادرة" ⁷، تتناقض بصورة فريدة مع ابتذال المهرجين والمحترفين الذين كان يشعر بدافع قوي لمعاشرتهم ومصادقتهم ⁸.

وهو أول من أباح لنفسه التندر بالأصدقاء والاخوان، مرة بالتصريح وأخرى بالتلميح، فقام "بتقييد الأنفاس، وخدّ غرائب أطوارهم، وعجائب تصرفاتهم، وشواذ أغراضهم، فكان الطرف من نظرتهم إلى الحياة، ونظرتهم الواقعية التي أثرت في نتاجه الأدبي والنقدي، فعرف فيه حبّ الدعابة وخفة الروح، وكان لطيف المعشر، سريع النكتة، حسن المحاضرة، مع سخرية ناعمة مقبولة" ⁹. فقد كان يرى أن الضحك يبقي صاحبه في غاية السرور إلى أن ينفك سببه، وكيف لا يكون موقعه في سرور النفس كبيراً، وهو شيء في أصل الطباع، وفي أساس التركيب؛ لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي...¹⁰

ولا أدلّ على ذلك من تخصيصه كتاباً كاملاً للحديث عن ظاهرة اجتماعية كالبلخ تناولها بأسلوب ساخر وبنظرة ثاقبة للبلخاء وظروفهم الاجتماعية وما تركيزه على الوصف السري الدقيق إلا إشارة إلى دور النادرة والضحك في الاهتمام بالتفاصيل الدقيقة التي تطرف الأذان.¹¹

ومن الواضح أن طريقة الجاحظ في السخرية والاستهزاء قد راقت لمجموعة من الأدباء الذين جاءوا بعد عصره فاتبعوا طريقته ومنهم: أبو حيان التوحيدي في حديث السقيفة، وكذلك ما وضعه التوحيدي في السخرية بأبي العباس أحمد بن ثوابه الكاتب، وكذلك ما وضعه أبو علي الحاتمي على أستاذه علي بن هارون... وغيرها والتي يبدو أن الجاحظ قد خطّ الطريق أمام هذه الظاهرة الأدبية.¹²

وتعدّ رسالة الترييح والتدوير من مصنفات الجاحظ الساخرة، ومن الوثائق المهمة التي بينت لنا فلسفة الجاحظ في السخرية، فلم يكن الجاحظ ليمتطي هذا الأسلوب دون أن تكون له غاية، أو يظهر من خلالها نظرة فلسفية خاصة. وتقوم هذه الرسالة على ثنائية الجد والهزل في شيء من التفصيل المتعمد الممل، مستخدماً التحليل والتركيز، وقوة البيان، وقدرته على الجد والنقاش، ويعرضها عرضاً وافياً، فقد بدأ الرسالة بوصف خاص مميز بدأه الجاحظ في وصف شخصية الوزير أحمد بن عبد الوهاب التي تستحق أن نقف عندها وقفة مطولة نتبين منها فلسفة الجاحظ في السخرية من خلال وصفه لها. فهذه الرسالة جاحظية النفس والأسلوب، خلط فيه الجد بالهزل بطريقة جميلة جعلته يتفرد بأسلوبه الفني في الكتابة والعرض. فقد توفرت لدى الجاحظ أسباب المرح والضحك في روح فنان وثقافة واسعة، ساعد ذلك تمرسه في الحياة واختلاطه

⁶ الغالي، بلقاسم (1999). الجانب الاعتزالي عند الجاحظ. الطبعة الأولى. بيروت: دار ابن حزم. ص 114. وانظر: العطري، عبد الغني. (1970). أدبنا الضاحك بيروت: دار النهار. ص 55.

⁷ العطري، عبد الغني. (1970). أدبنا الضاحك. بيروت: دار النهار. ص 55.

⁸ أحمد، عزت السيد. (2005). فلسفة الأخلاق عند الجاحظ. دمشق: اتحاد الكتاب العرب. ص 17.

⁹ السندوي، حسن (1931). أدب الجاحظ. الطبعة الأولى. القاهرة: المطبعة الرحمانية. ص 200.

¹⁰ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البخلاء. تحقيق طه الحاجري. الطبعة الثامنة. مصر: دار المعارف. ص 8.

¹¹ المرجع نفسه. انظر كتابه البخلاء ومقدمة المحقق حول اختيار هذه الظاهرة الاجتماعية على الخصوص. ص 8.

¹² المرجع نفسه. ص 46-48.

الشديد بالناس على اختلاف درجاتهم وخلفة مشوهة جملها خفة ظل لا حدود لها، وكان عظيم الدعابة والعبارة فقد ضحك وأضحك، وذلك نابع من نزعة فنية¹³

تحتشد الرسالة بموضوعات عديدة متنوعة، الجامع الوحيد بينها للوهلة الأولى هو أحمد بن عبد الوهاب، لذلك فإن فهم مرامي الجاحظ من الرسالة مبني على فهم علاقته بهذه الشخصية، والإشكالية التي كانت بينهما، وعليه فإن في الرسالة وجهتين: وجهة قريبة ظاهرة، وأخرى بعيدة يحتاج كشفها إلى تأمل في مضمون الرسالة ككل، والأولى طريق إلى الثانية، فلا يمكن العبور إلى فهم مراميها البعيدة دون الكشف عن الوجه الظاهر.

إن الحديث في المحور الأول هو عن شخصية أحمد بن عبد الوهاب الذي حوله إلى محور الرسالة، وجعل السخرية الطريق للدخول في الموضوع الذي يريده، بل جعله مرمى لسهامه التي لن يستطيع ردها قبل أن يدرك أن هذا ليس الغاية الحقيقية التي يريد الجاحظ أن ينال بها منه.

شخصية أحمد بن عبد الوهاب

لم تحتوِ المصادر التاريخية التي ترجمت للأعلام المشاهير من الرجال في عصر الجاحظ ترجمة شافية لهذا الرجل، إلا أن قارئ التربيع والتدوير يستطيع أن يتعرف على هذا الرجل بالطريقة التي أراد الجاحظ أن يقدمه فيها، فمن المؤكد أن هناك علاقة قائمة كانت بين الشخصيتين، والمهم فيها من الناحية الفكرية أن ابن عبد الوهاب كان رافضياً وكان بينهما ما يشبه المناظرات الفكرية، وهذا الانتماء الفكري يجعله في جهة معارضة لفكر الجاحظ مما سيجعله عرضه لسهامه، فالجاحظ من المنظرين للفكر المعتزلي وصاحب فرقة معتزلية خاصة سميت باسمه، مما سيجعل ابن عبد الوهاب في فكر نقيض للجاحظ وهو الفكر الرافضي .

لقد وضع الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب في مركز النقد والسخرية، فهو يطالعنا ببدء الرسالة بوصف خارجي لشكله وهيبته، ويقوم ذلك على شكل مفارقة ساخرة مضحكة، فيقوم بتشويه رسمه فيجعل شيئاً من أعضائه ضخماً، وشيئاً منها مضمحلاً، فينتج شكلاً (كاريكاتورياً) عجباً يعجز عن وصفه ورسمه أعظم الرسامين، بل قد يعجز العقل المجرد في بعض مفصلات الوصف عن تجميع الصورة وضماها إلى بعضها بعضاً .

لقد سخر الجاحظ من أحمد بن عبد الوهاب بطريقة فريدة لم نعهدها في الأدب العربي من قبل ، فهو لا يكيل الشتائم المباشرة والانتقاص من المهجو بقدر ما يصنع منهجاً قوياً وجديداً في إبراز العيوب التي يغلفها بثياب المديح، وهذا ما يؤكد أن الجاحظ لم يكن حاقداً، بل فيلسوفاً ساخرًا يتهم في شفقة وينتقد في دعابة¹⁴.

فأحمد بن عبد الوهاب مربع الجسم واسع الصدر، ومدور الخاصرة، جعد الأطراف، دلالة على السمنة، قصير الأصابع عتيق الوجه، أخصم البطن ، طويل الظهر، قصير عظم الفخذ والساق، ولا يخفى على أحد أن هذا الوصف للرجل مثير للضحك، كما لا يخفى على المتلقي نية الجاحظ في النيل من شخصية ابن عبد الوهاب فانظر إلى ظهر طويل على أرجل قصيرة، والظهر الطويل مشهد من الخلف فلا بد أن المشاهد من الأمام أكثر تشويهاً؛ لأن ملامح الإنسان من الأمام تظهر العيوب بشكل واضح وجلي، ومع ذلك فهو قصير الأصابع على هذا الطول في الظهر حيث تبدو صفاته تتم عن تشوهات بارزة لكل من ينظر إليه " كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر، ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعاً، وتحسبه لسعة جفرتة، واستقاضة خاصرته مدورا، وكان جعد الأطراف قصير الأصابع، وهو يدعي السباطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه أخصم البطن معتدل القامة تام العظم، وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ"¹⁵ .

¹³ أبو علي ، محمد بركات حمدي. (1982) . سخرية الجاحظ من بخلائه . الطبعة الثانية. عمان : دار الأقصى . ص 67-68.

¹⁴ بليغ ، عبد الحكيم. أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري،. مصر،. مكتبة نهضة مصر . ص 302.

¹⁵ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملح. ص 431.

ينتقل الجاحظ بعد ذلك إلى الحديث عن عمره فهو كبير السن في حين أنه نفسه يدعي أنه متوسط الشباب حين الميلاد " وكان كبير السن متقادم الميلاد، وهو يدعي أنه معتدل الشباب حديث الميلاد"¹⁶، ولا يخفى على المتلقي نية الجاحظ في النيل من هذه الشخصية، وهو هنا إنما أراد التأكيد على تقبيح صورتين: الشكل، والعمر.

أما من الناحية الشكلية فهو بشع المظهر، مراوغ، مرأى، " وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، ... وكان كثير الاعتراض لهجا بالمرء شديد الخلاف كلفا بالمجازبة متتاعياً في العنود، مؤثراً للمغالبة، مع إضلال الحجة والجهل بموضع الشبهة..."¹⁷. بهذا الانطباع الرديء عن أحمد بن عبد الوهاب يفتتح الجاحظ رسالته، ويهدف إلى تقزيم الرجل الذي سيغدو فيما يستقبل من صفحات الرسالة مناظراً له يخاطبه وجهاً لوجه، وكأن الرجلين في مجلس يتخاطبان، وقد اتخذ منه خصماً مناظراً.

فأحمد بن عبد الوهاب يمثل الرفضة مقابل الاعتزال الذي يمثله الجاحظ، لذا نجد السخرية تسير في هذا الاتجاه، وهذا الموقف يتخذ بعداً ذا قيمة كبيرة تتخطى السخرية بحد ذاتها، ويذهب إلى أبعد من ذلك يقول النقاد: " قد تكون وظائف التهكم كثيرة، لكن بالإمكان إجمالها في وظيفتين محوريّتين، يمكن أن تشعب كل منهما إلى أفرع مختلفة، وهاتان الوظيفتان هما: الشجب بمعناه الواسع بوصفها دالة متعددة الأسهم المؤشرة على معانٍ ومقاصد متباينة، والدفاع عن الذات بالمعنى الأوسع شمولاً"¹⁸.

وهذا يعني أن الجاحظ ينتصر لمذهبه من خلال أسلوب التهكم والسخرية¹⁹، فهو يناضل للدفاع عن الذات في عصر تباينت فيه المشارب الفكرية للفرق فتولت كل واحدة منها إلى جهة، وكان كل حزب بما لديهم فرحون، فبين الرفضة والمعتزلة والقضايا الأخرى التي كانت تطفو على الساحة الفكرية آنذاك؛ إذ كان أهل الاعتزال فرسان المناظرات العقلية، وكان العقل عندهم مرتكز كل شيء ومنطلقه، الأمر الذي أعطى الاعتزال قوة على المناظرة والإفحام، وهو ما سيتضح من خلال استكمال النظر في هذه الرسالة.

يركز الجاحظ على فكرة الادعاء وهي فكرة ألح عليها في وصفه الخارجي لجسم ابن عبد الوهاب الذي لا خلاف فيه؛ لأنه يظهر للعين الناظرة، كما أنه مدعٍ في عمره بحيث يدعي الشباب في حين هو متقدم الميلاد، ولا يكتفي الادعاء على الوصف الخارجي فقط بل يصل إلى المعرفة والعلم، فالكاتب سار في فكرة الادعاء من ادعاء بالشكل والعمر إلى فكرة الادعاء بالمعرفة والعلم والتي ستسهل على المتلقي قبول فكرة الادعاء بالمنهج والفكر لينال منه بعد ذلك.

ويقول الجاحظ في معرض حديثه عن شخصية أحمد بن عبد الوهاب: " وكان ادعاؤه لأصناف العلم على قدر جهله بها، وتكلفة للأنافة على قدر غباوته فيها"²⁰، وهذا يُظهر الرجل أنه مدعٍ للعلم وليس بعالم، بل إنه لم يؤت من العلم ما يزيد عما أوتيته الإنسان العادي غير المثقف؛ إذ يتسم الرجل بالغباء إضافة إلى مرأى وجدل واعتراض لمجرد الاعتراض، ولعل الكلام الذي ساقه ينبئ عن أنه يرمي إلى أبعد من ذلك، أي إلى القدح بالرفضة وأساليبهم فيقول: " وكان كثير الاعتراض لهجا بالمرء، شديد الخلاف، كلفا بالمجازبة، متتاعياً في العنود، مؤثراً للمغالبة مع اضمحلال الحجة والجهل بموضع الشبهة، والخطرفة عند قصر الزاد، والعجز عند التوقف، والمحاكمة مع الجهل بثمرة المرء، وفساد القلوب ونكد الخلاف..."²¹.

والسؤال هنا: ما الذي دفع الجاحظ أن يجعل من ابن عبد الوهاب نداً ومقارناً له؟ إلا أن تكون هذه الشخصية غير مقصودة لذاتها وأن وراء الأكمة ما هو أبعد من ذلك، فهو سيتخذ منه واجهة لمجابهة فكر عريض شائع، وهي فرقة موجودة ومؤثرة

¹⁶ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملح. ص 431.

¹⁷ المصدر نفسه. ص 431.

¹⁸ أحمد، عزت السيد. (2005). فلسفة الأخلاق عند الجاحظ. دمشق: اتحاد الكتاب العرب. ص 17.

¹⁹ للاستزادة حول الموضوع انظر: إبراهيم، وليد عبد المجيد (2001). الشعر الهزلي العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري. الطبعة الأولى. الأردن:

مؤسسة الوراق، حيث يعرض لتأثير المعتزلة ودورها في السخرية والتهكم في العصر العباسي، ص 32-39.

²⁰ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملح. ص 431.

²¹ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملح. ص 431.

في الساحة الفكرية والسياسية المحترمة آنذاك. وهذا ما دفع الجاحظ إلى أن يحول رسالته إلى دائرة معارف مختلفة، جامعة لمختلف العلوم²² فطبيعة الأسئلة التي وجهها وحجمها يدلان على هذا التصور.

أسلوب الجاحظ في التربيع والتدوير

أول ما يثير التساؤل هنا هو عنوان الرسالة، وماذا قصد الجاحظ بهذا العنوان؟ يذهب جميل حمداوي إلى أن "العنوان مفتاح من مفاتيح فك مغاليق النص واكتناه أسرار" ²³، كما هو العتبة الأولى التي يطل فيها المتلقي إلى دواخل النص وغاياته، ولا شك أن قارئ الرسالة سيبقى حاملاً هذا العنوان، وما يشي به في ثانيا النص وتأويلاته؛ لأنه أول ما يطالع المتلقي ويدفعه إلى مطالعته.

فإن عنوان الرسالة يختلف عن عناوين رسائل الجاحظ الأخرى من مثل: البلاغة والإيجاز التي تتحدث عن البلاغة والإيجاز والفرق بينهما...، والشارب والمشروب والتي تتناول الحديث عن أنواع النبيذ وعن حكمه أهو حلال أم حرام؟ و... الخ، وكتاب المعلمين الذي يتناول فضائل المعلم والدفاع عنه وأوقات التعلم و...، فالعناوين السابقة تدل دلالة مباشرة على محتوى الرسالة، فهي أقرب إلى التسمية منها إلى العنوان الفني.

أما هذه الرسالة فالعنوان يطالعنا بشيء من الإبهام، وهو ما يضيف على الرسالة مسحة فنية جميلة تدعونا للبحث عن غاية العنوان وسببه، ولعل عدم ذكر الجاحظ للعنوان بشكل مباشر هو المحتوى الساخر الذي ضمنه في بدايتها من ناحية، ومن ناحية أخرى فهناك جانب فلسفي زاد من الشعور بفنية العنوان عن غيره ويشير شوقي ضيف إلى هذا قائلاً: " ما يجعلنا نفهم لماذا سميت هذه الرسالة باسم التربيع والتدوير ؟ فقد بناها الجاحظ على الفكرة التي نؤمن بأنه استقاها من فكرة الأوساط اليونانية المعروفة بالأخلاق"²⁴.

فالعنوان كما يراه شوقي ضيف يبدو فيه متأثراً بالفلسفة اليونانية، ويُفهم كذلك من تأويله للعنوان أنه يحمل دلالات فنية وفلسفية عميقة، في حين يبدو الأمر عند الجاحظ بسيطاً من الناحية الشكلية وأكثر عمقا من ناحية التأويل فيقول: " والمربوع مثلي من الطويل"²⁵، ويقول " والمربوع بحمد الله قد اعتدلت أجزأؤه في الحقيقة..."²⁶، ويقول: " والرمح وإن طال فإن التدوير عليه أغلب"²⁷، ويقول: " وإن الأفلاك وما فيها والأرض وما عليها على التدوير دون التطويل"²⁸ وقال في عبارة صادرة عن نظرة عميقة للموضوع في الحديث عن الموجودات: "ولا يوجد التربيع إلا في المصنوع دون المخلوق... على أن كل مربع في جوفه مدور"²⁹.

وقد ذكر الجاحظ عنوان الكتاب بشكل واضح وقد حولها إلى عنوان لرسالته منزوعة من وصفه لأحمد ابن عبد الوهاب بأنه قزم صغير، ذو جسم قصير، تربيع حجمه، وارتفع شحمه، حتى تدور شكله، وتكور صقله، فبذلك يكون الجاحظ قد ربط بين عنوان الرسالة وغاياته من وصف الوزير بالتربيع والتدوير وغاياته من كل ذلك³⁰، لا بد من النظر إلى العنوان بشكل فني مختلف له دلالة فنية خاصة في هذه الرسالة.

²² بليغ، عبد الحكيم. أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري،. مصر: مكتبة نهضة مصر. ص304.

²³ حمداوي، جميل. (1997). السيميوطيقا والعنونة. عالم الفكر. مجلد 52، العدد الثالث. ص79-112. ص96.

²⁴ ضيف، شوقي. (د.ت). الفن ومذاهبه في النثر. الطبعة الثانية. مصر: دار المعارف. ص96.

²⁵ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملح. ص436.

²⁶ المصدر نفسه. ص436.

²⁷ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملح. ص440.

²⁸ المصدر نفسه. ص441.

²⁹ المصدر نفسه. ص441.

³⁰ سرحان، عبد السلام. (1965). دراسات في الأدب العباسي. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة القاهرة. ص474.

إن هذه الإشارات التي أوردها الجاحظ في وصف أحمد بن عبد الوهاب تؤكد وجود نظرة فلسفية عميقة وراء عنوان الرسالة، فإذا كان التدوير هو الأصل فلماذا بدأ الرسالة بالتبريع؟ ثم عطف عليها التدوير؟ علماً أن التدوير عنده أصل، فالإشارات الفلسفية في العنوان الذي أشار إليه شوقي ضيف، وأسلوب الجاحظ الساخر في وصف ابن عبد الوهاب، وخوض الجاحظ في الحديث في العلوم والعقائد وغيرها، يجعل العنوان فنياً يمكن أن يفتح أبواباً كثيرة للتأويل وزوايا متعددة للنظر إلى هذا النص الأدبي.

إن تنوع صيغة الخطاب الوارد في الرسالة يدعو إلى التأمل، فهو يتحدث عن أحمد بن عبد الوهاب بضمير الغائب قائلاً: "كان أحمد بن عبد الوهاب مفرد القصر وهو يدعي أنه مفرد الطول" ³¹، ثم يتحول إلى صيغة الخطاب المباشر ساخراً منه: "قد علمت - حفظك الله - أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة وعلى حور العين وجودة القدم..." ³²، فعند وصفه له بدأ بضمير الغائب، أما عندما بدأ بطرح الأسئلة، واستعراض قدراته، وعلمه استحضره الجاحظ شاخصاً أمامه يجادله وينظره، فلا تصلح شخصية الغائب للمجادلة والنقاش، وإنما استحضره الجاحظ شاخصاً أمامه؛ ليظهر له زيف معتقده، ويبين له ضعف حجته.

وبذلك فالجاحظ سعى إلى إبراز علمه، وفضائله، وفلسفته متحدثاً باسم فرقته الاعتزالية من جهة، ويظهر أحمد بن عبد الوهاب الرافضي في الجهة المقابلة من خلال جذب المتلقي إلى النص؛ إذ قام بتجسيم صورة غريبة له ظهر فيها بشكل (كاريكاتوري) يجهد المتلقي في جمع أشنات الصورة المختلفة، ويصعب عليه في الوقت ذاته جمع الصفات المختلفة، أو تحديد زاوية الرؤية الطبيعية الحقيقية التي ينظر من خلالها الجاحظ إلى هذا الرجل.

كما يثبت الجاحظ قدرته، وسعة اطلاعه، وثقافته فرقته -المعتزلة- عامة، وثقافته على وجه مخصوص، وطول باعه في الجانب الثقافي والفلسفي، واطلاعه الواسع على الثقافات المختلفة، بأسلوب قلما تجد من يجاريه.

وإذا تعمقنا أكثر في النص، فإن الجاحظ يضع إشكالا أمام المتلقي في فهم الموضوعات واحتشادها التي ضمنها في رسالته هذه مما دعاهم للقول: "إن الرسالة تعج بعالم اللانظام والفوضى الجاحظية، فهو يخرج من طور السخرية إلى الهزل إلى المزاح ومن ثم إلى الجد" ³³. وكذلك يقول آخر: "يهجو - أي الجاحظ - هجاء معلناً، فهو لم يكن حاقداً، وإنما فيلسوفاً ساخراً يتهمك في شفقة، وينتقد في دعابة" ³⁴. يجب النظر إلى الرسالة على أنها توطر لشكل جديد من أشكال الكتابة الساخرة، وهي بالتالي لا بد أنها تؤسس لشكل جديد من أشكال التلقي حتى يستطيع المتلقي الوقوف على غاياتها ومراميتها.

فمباشرة الجاحظ للمتلقي والبدء بوصف أحمد بن عبد الوهاب جذب المتلقي إلى الرسالة، وأنكب على قراءتها ومطالعتها حتى النهاية، وعرض الجاحظ من خلالها آراء المعتزلة العقلية الجامدة، ومسائلهم بطريقة لم تجعل المتلقي يشعر أنه يتلقى دروساً في الفلسفة أو العلوم، مع وجود دلالات فلسفية من عنوانها، إن هذا الخلط بين أسلوب الجد والهزل، واستخدام الطريقة الساخرة في وصف ابن عبد الوهاب ما هي إلا أسلوب فني انتهجه الجاحظ لايصال رسالته المذهبية والفلسفية دون حدود مانعة، أو قيود تحد من قدرته على الوصول إلى ذات القارئ، وعقله، ولعل هذا ما دفع الجاحظ إلى الاعتذار لابن عبد الوهاب في أنه لم يرد أن يهجو، أو أن يذكر صفاته الجسمية بل أراد تضخيم الصورة، وإخراجها من بعدها الإنساني المتعارف عليه؛ لأنه يبحث عن غايات

³¹ الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو لمحم. ص431.

³² المصدر نفسه. ص433.

³³ العجيمي، محمد الناصر. (1998). النقد الأدبي الحديث ومدارس النقد الغربية الطبعة الأولى. صفاقس: دار محمد علي الحامي. ص697.

³⁴ وليد، عبد المجيد. (2001). الشعر الهزلي العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري. الطبعة الأولى. الأردن: مؤسسة الوراق. ص36.

خفية من وراء البدء بهذا الشكل من الوصف فقد قال: "أني لم أرد بمزاحك إلا ضحك سنك"³⁵ ، فهذا الاعتذار يحمل غايات ومبررات تخرج وصف الجاحظ لابن عبد الوهاب من باب الهجاء وتجعله يتفرد بأسلوب كتاباته ووصفه.

أنواع سخرية الجاحظ من أحمد بن عبد الوهاب

يمكن رصد عدة أنواع من السخرية استخدمها الجاحظ في الرسالة، وهي على النحو الآتي:

1. سخرية بقالب هزلي .
2. سخرية بقالب جدي.
3. ازدرء واستخفاف.

وفيما سيأتي تفصيل ذلك:

أولاً: السخرية بقالب هزلي :

وهي تدعو إلى الضحك، ومحلها مطلع الرسالة من خلال تقديم الجاحظ لوصف جسدي غريب، وغير متناسق لجسم أحمد بن عبد الوهاب؛ إذ وضعه في هيئة (كاريكاتورية) مضحكة³⁶، واتخذ في ذلك سبيلين:

أ- الوصف القبيح كقوله: " وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ..."³⁷، إن هذا الوصف هو وسيلة من وسائل الجاحظ للنيل من ابن عبد الوهاب فقد رفض بعض النقاد المبالغة في الوصف على أنها نوع من أنواع المضحك ، فالمبالغة مضحكة إذا شطت لا سيما إذا كانت ذات منهج³⁸ خفي يعرفه كاتبه.

ب- مدح في معرض الذم كقوله: " فمن يطمع في عيبك؟ بل من يطمع في قدرك؟ وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خود إلا وهي تعثر باسمك ولا قينة إلا وهي تغني بمدحك، ولا فتاة إلا وتشكو تباريح حبك..."³⁹.

ت- ازدرء واستخفاف: ويظهر هذا في الجزء الذي خصصه لطلب العفو والصفح من أحمد بن عبد الوهاب، الذي يظهر منه أن الجاحظ أراد عفوهِ إلا أنه أراد الامعان بالسخرية منه، والاستزاده من الهزء به، ويبدو ذلك من خطابه لهذا الرجل الوضيع في نظره بأسلوب مخاطبة العظماء والخلفاء " وبعد، فمن وهب الكبير فكيف يقف عند الصغير،؟ فمن لم يزل يعفو عن العمد كيف يعاقب على السهو، ولو كان عظم قدري هو الذي عظم ذنبي لكان عظم قدرك هو الذي شفع لي"⁴⁰. إن الجاحظ في هذه الرسالة قد مثل الوزير بصورة الغبي، فألبسه وأهانته، وتخيل منه النزق الدعي، فكساه ثيابه⁴¹، بعد أن عراه في الصفات والشكل فكشف غطاءه ولم تستره الثياب التي تكسوه.

يبدو من هذا الكلام أن الجاحظ قد وصل إلى قمة الاستخفاف بالرجل، فهو كاتب من كتاب الدواوين، وقد بدا في غاية الجهل والمراء - كما قدمه سابقاً - لكنك تقرأ في هذه الفقرة خطاباً موجهاً إلى عالم جليل، أو شيخ كبير، أو سلطان عظيم، فهو فوق رتبة البشر، فاق حلمه الأنام ، وتحدثت الركبان بسيرته العطرة، ويستكمل هذا الجانب بقوله: " وفرق ما بين أقدارنا وقدرك أنا نسيء وتغفر، ونذنب وتستر، ونعوج وتقوم، ونجهل وتحلم، وإن عليك الأنعام وعلينا الشكر، ومن صفاتك أن تفعل

³⁵ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملحم. ص431.

³⁶ برجسون، هنري (2001). الضحك البحث في دلالة الضحك. ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مهرجان القراءة للجميع ص26-27.

³⁷ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملحم. ص431 وما يليها.

³⁸ برجسون، هنري (2001). الضحك البحث في دلالة الضحك. ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مهرجان القراءة للجميع ص84.

³⁹ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملحم. ص464.

⁴⁰ المصدر نفسه. ص458.

⁴¹ سرحان ، عبد السلام . (1965).دراسات في الأدب العباسي. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة القاهرة. ص473.

ومن صفاتنا أن نصف "...⁴². لقد قدم الجاحظ ابن عبد الوهاب بشكل أقرب إلى الالهة منه إلى البشر، في حين لم ننس أن هذا الرجل كان في بداية الرسالة مسخاً لم نستطع تلمس صفاته أو جمع صورته بشكل سليم لائق.

ثانياً : سخرية بقالب جدي :

يدعو هذا النوع إلى كشف حقيقة الرجل أحمد بن عبد الوهاب الذي قد يكون رمزاً للرافضة جميعهم، وهنا يتغير أسلوب الجاحظ، فيتجاوز الشكل إلى المضمون، ويغوص في عمق الشخصية، فيسخر من علمه الضحل، وعقله الفقير للحجة والبرهان، وطريقته في المحاجة والحوار التي لا تعرف إلا المعاندة، والتملق بالأسباب الواهية، وكأن الجاحظ يريد أن يسجل مثلبة عظيمة في شخص هذا الرجل تتلخص في جاهل يدعي العلم، وليس هذا فقط بل وينتمي إلى فرقة لا يعلم أصول مذهبها، ولا الأسس التي قامت عليها، فضلاً على أن الجاهل - كما يفهم من الجاحظ - على استعداد لأن يناظر أهل العلم والفكر ويحاججهم .

ثالثاً : ازدراء واستخفاف :

حفلت الرسالة بالمتضادات والمقابلة بين العلم والجهل، فما أن فرغ من وصف شخصية أحمد بن عبد الوهاب من الناحية الخلقية والخلقية حتى بادره بعدد كبير من الأسئلة في مواضيع متنوعة تكاد تشمل جوانب المعرفة جميعها كسؤاله له : " حدثني عن الطوفان ، ومتى سيل العرم؟.."⁴³ وأسئلته التاريخية المتنوعة " خبرني عن هرمس أهو ادريس؟ وعن أرميا أهو الخضر؟ وعن يحيى بن زكريا أهو أيليا؟ ... وما قصة الزهرة وما شأن سهيل ؟ وما الصداقة بين الجن والأروية؟..."⁴⁴ وأسئلة عن الطبيعة " خبرني عن معنى الفرات وحقه وصدقه وعن نضوب البحر وعن تنقص الأرض...."⁴⁵ والأسئلة عن الأقاليم والأوثان والأحياء والمعتقدات الشعبية التي تعني الرافضة عناية شديدة ومباشرة، وعن الجن والكيمياء والمزاح والفلسفة والألوان والموسيقا والسحر والشيطان وغيرها من الموضوعات العامة لأبواب المعرفة الكبيرة والواسعة وهذه الموضوعات أكبر من أن تحصى، وهي موجهة لشخص أحمد بن عبد الوهاب وهذه الأسئلة أكبر من أن تجمع في كتاب، فكل هذا الجزء من الرسالة محشو بالأسئلة التي لا يفصل بينها فاصل ومرصوفة رصف الفسيفساء من حيث كثرتها وتنوع مصادر المعرفة فيها .

تقع أسئلة الجاحظ الساخرة في أشكال عدة منها :

1. أسئلة أشبه بالغاز ومنها: " لم كان اللون أسرع تتقفا من الجمود؟ ولم كان الولد يجيء شبه ما في أبيه من الأمور الحادثة في بدنه غير القديمة في أصل تركيبه؟.."⁴⁶ ، ومنها قوله: " وما آوى؟ وما حبين؟ وما عرس؟ وما أوبر؟ وما وردان؟ وما قصة الطرائث؟ وما سبب كون السنانير؟.."⁴⁷ وهذه الأسئلة التي أكثر منها الجاحظ ما هي إلا سخرية معلنة؛ لأن القارئ يتوقع من أحمد بن الوهاب أنه لن يفهم هذه الأسئلة، وبالتالي فلن يستطيع الإجابة عنها.

2. أسئلة استخفاف، وهي التي يخاطب الجاحظ فيها أحمد بن عبد الوهاب باستخفاف شديد " جعلت فداك، وقد شاهدت الإنس مذ خلقوا، ورأيت الجن قبل أن يجبوا، ووجدت الأشياء بنفسك خالصة وممزوجة وأغفالا، وموسومة وسالمة ومدخولة، فما تخفى عليك الحجة بين الشبهة ولا السقم من الصحة ... فماذا تقول في الرأي والرؤيا؟ وماذا تقول في أكسير الكيمياء؟ وماذا تقول في كيموس الصنعة؟ ... "⁴⁸ وكان المسؤول له عمر سرمدى، وهذا يدخل في باب الازدراء والاستخفاف والسخرية من عمره، فهو قد عاصر خلق الإنس والجن، ولا تخفى عليه خافية، وهو جدير بأن توجه إليه الأسئلة التي لا تعرف لها إجابة، ولا يعلمها بشر على

⁴² الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملحم. ص458.

⁴³ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملحم. ص443.

⁴⁴ المصدر نفسه. ص442.

⁴⁵ المصدر نفسه. ص442-485.

⁴⁶ المصدر نفسه. ص446.

⁴⁷ المصدر نفسه. ص44.

⁴⁸ المصدر نفسه. ص451-452.

هذه البسيطة، فكأنه وقع على كنز من كنوز المعرفة، وأكسبر من المعرفة، والحقيقة الكامنة وراء هذه الأسئلة الاستخفاف والازدراء من الرجل والتنبية إلى جهله، والحط من قيمته.

3. ويبلغ ذروة الاستخفاف به عندما يقول: " فخبني ما كان بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك، وعن سماعتك أفلاطون، وما دار بينك وبين ارسطاطاليس" ⁴⁹ إلى أن يصل إلى " ولعلك دابة الارض وما أدري لعلك سوشى، ولست بحمد الله الخضر، والذي لا أشك فيه أنك المسيح... " ⁵⁰.

وكثيراً ما يستخدم الجاحظ في طريقة السؤال لفظ (خبرني) أو لفظ (حدثني) وهو بدرجة اقل من الأول ويبدو أن الجاحظ أراد من ذلك عدة أمور منها :

أ. التحدي العلن، وذلك لإثبات جهل أحمد بن عبد الوهاب لما فيها من المباشرة، فلو أن الرجل يعرف إجابتها لما بادره الجاحظ بها، وكأنه يقول : إن كان لك تعلق بالعلم فاجب عن أسئلتني .

ب. الازدراء؛ لأن طرح السؤال بهذه الصورة يشي بوضاعة المسؤول، وقلة علمه وهيبته.

ت. إثبات واسع معرفة الجاحظ، فطرح الأسئلة عن أشياء متنوعة كثيرة، يدل على أنه يمتلك معرفة واسعة بها لا سيما أن الجاحظ يصرح بمثل هذه المعرفة بقوله: " وقد سألتك، وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيراً، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل ... فالزم نفسك بقراءة كتبي ولزوم بابي... " ⁵¹ . لا شك أن ملازمة كتب الجاحظ تعني بالضرورة الاطلاع على الفكر الاعتزالي له، ووجوده على بابه يلزمه أن يكون من اتباع هذه المذهب فالتقزيم هنا ليس للشخص بقدر ما هو للمذهب الرفض الذي يحمله ابن عبد الوهاب.

يضع الجاحظ في عقب النص المقتبس السابق عبارة صغيرة في حجمها كبيرة في دلالتها، تكشف عن مرامي الجاحظ من وراء هذه الكتابة كلها، وتبين أن السخرية لم تكن هدفاً قائماً بذاته، ولا غاية في ذاتها، وإنما الهدف ما وراء ذلك هو الحديث عن المذهب والفكر.

فكل ما ورد في هذه الرسالة كان من أجل أن يتحول هذا الرجل عن مذهبه الرفض إلى مذهب آخر هو مذهب الجاحظ نفسه لينتهي إلى جملة مفصلية في الرسالة هي " واستبدل بالرفض الاعتزال" وهذه غاية الرسالة بدت واضحة جلية بعد أنتم الجاحظ ما أراد من الشخصية والنيل منها.

تبدو الرسالة في هذا المجال طائفية تلبس ثوب الانتماء للمذهب الذي لم يخفيه الكاتب من البداية وحتى النهاية التي أقر فيها بغاية الرسالة، فهو يرى أنه على الحق المبين في حين يرى الرفض في ضلال مبين .

النتائج:

فقد قدمت هذه الدراسة السخرية عند الجاحظ في نموذج واحد هو رسالة التربع والتدوير التي كتبها في الوزير أحمد بن عبد الوهاب والذي كان رافضياً على خلاف من منهج الجاحظ الاعتزالي فأراد الجاحظ أن ينال من فكره من خلال سخريته من شخصية الوزير وتوصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج:

1. أدت السخرية منذ القدم دوراً مهماً في الجانب الاجتماعي، فهي المنظم والمقوم لحياة الفرد والجماعة، أما عند الجاحظ فهي تؤدي دوراً فلسفياً بالإضافة إلى دورها الحقيقي في الإضحاك .

⁴⁹ المصدر نفسه. ص451.

⁵⁰ المصدر نفسه . ص453.

⁵¹ الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1987). رسائل الجاحظ. تحقيق علي أبو ملحم. ص486.

2. استطاع الجاحظ أن يرسم صورة (كاريكاتورية) لشخصية أحمد بن عبد الوهاب تحتاج إلى جهد كبير من أجل الربط بين أجزائها، فما رسمه بالكلمات قد يعجز عنه أحسن الرسامين في العالم، مع حفاظه على روح الدعابة بقي ذلك الفيلسوف الذي يستطيع أن يوظف الأدب والفن لخدمة فكره واعتزاله، فالجاحظ نال من شخصية الوزير بطريقة ساخرة من خلال : الوصف الخارجي للشخصية والذي اتبع فيه طريقة الرسم (الكاريكاتيري)، والوصف لفكره الأجوف - كما صوره الجاحظ - من خلال مجموعة الأسئلة التي وجهها الجاحظ له والتي سيجد إجاباتها في كتب الجاحظ التي تحتوي على الفكر الاعتزالي .
3. إن الأسئلة التي وردت في الرسالة والموجهة إلى أحمد بن عبد الوهاب التي أخذت حيزا كبيرا من نص الرسالة أراد منها الكاتب أمرين : استعراض علمه وفضله وقدرته العلمية والمعرفية الموسوعية، وبيان جهل المقابل الشخص والفرقة ومدى جهله وسخف مذهبه، واستطاع في نهاية الأسئلة أن يخلص إلى غاية الرسالة ويعلن عن هدفه في الطلب منه ترك الرفض والانتفاء للمعتزلة، وهذه الأسئلة التي وجهها الجاحظ للوزير سارت بطرق منها : أسئلة أشبه بالغاز ، وأسئلة استخفاف وهو ما يؤكد أن الغاية ليست المعرفة وإنما النيل من شخصية الوزير ابن عبد الوهاب.
4. تعددت أنواع سخرية الجاحظ من الوزير من خلال: سخرية بقالب هزلي، وسخرية بطابع جدي، وازدراء واستخفاف.
5. جمع الجاحظ بين السخرية كفن أدبي وبين فكره الاعتزالي، وجعل الضحك يخدم الاعتزال، وقلما تجد مفكرا مؤمنا بقضيته كإيمان الجاحظ باعتزاله الذي صهر ووظف كل أشكال معرفته لخدمة مذهبه.

المصادر والمراجع

المراجع:

- إبراهيم ، وليد عبد المجيد. (2001). الشعر الهزلي العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري. الطبعة الأولى. الأردن: مؤسسة الوراق.
- أحمد ، عزت السيد(2005). فلسفة الأخلاق عند الجاحظ. دمشق: منشورات اتحاد الكتاب العرب.
- الأشقر، عبد الكريم (1969). نصوص مختارة من الأدب العباسي الطبعة الثانية. دار الفكر.
- برجسون، هنري (2001). الضحك البحث في دلالة الضحك . ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم . الهيئة المصرية العامة للكتاب . مهرجان القراءة للجميع.
- بطيش، سيمون (1983). الفكاهة والضحك في أدب مارون عبود. الطبعة الأولى. دار مارون .
- بلبع ، عبد الحكيم (د.ت). أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري. مصر: مكتبة نهضة مصر.
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر. البخلاء. تحقيق طه الحاجري. الطبعة الثامنة. مصر: دارالمعارف.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر(1987). رسائل الجاحظ . قدم لها علي أبو ملح . الطبعة الأولى.بيروت: دار الهلال .
- الحاجري، طه (د.ت). الجاحظ حياته وآثاره الطبعة الثانية . مصر: دار المعارف، مصر.
- حمداوي، جميل (1997). السيميوطيقا والعنونة. عالم الفكر . مجلد 52. العدد الثالث. ص79-112.
- سرحان، عبد السلام (1965). دراسات في الأدب العباسي. الطبعة الثانية. القاهرة: مكتبة القاهرة .
- السندوبي ، حسن (1931). أدب الجاحظ. الطبعة الأولى. القاهرة: المطبعة الرحمانية .
- ضيف، شوقي (د.ت). الفن ومذاهبه في النثر . الطبعة الثانية. مصر: دار المعارف.

عبد الحميد، شاكر. (2003). الفكاهة والضحك رؤية جديدة. الكويت: سلسلة عالم المعرفة . المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . ع 289.

العجيمي، محمد الناصر (1998). النقد الأدبي الحديث ومدارس النقد الغربية. الطبعة الأولى. تونس: دار محمد علي الحامي . أبو علي ، محمد بركات حمدي (1982). سخرية الجاحظ من بخلائه. الطبعة الثانية. عمان: دار الأقصى. العطري، عبد الغني (1970). أدبنا الضاحك . بيروت: دار النهار .

الغالي ، بلقاسم (1999). الجانب الاعتزالي عند الجاحظ. الطبعة الأولى. بيروت: دار ابن حزم. محمد، فراس عمر أسعد الحاج (1999). السخرية في الشعر الفلسطيني المقاوم (1948-1993). جامعة النجاح. رسالة ماجستير.

الهوال، حامد عبده (1982). السخرية في أدب المازني . مصر: الهيئة المصرية العامة

قائمة المراجع المرومنة:

- Walid, I. (2001). The Abbasi comi poetry until the end of the third Hijri century (in Arabic). First Edition. Jordan: *Alwaraq Publications*
- Ezzat, A. (2005). Al Jahiz's ethics philosophy (in Arabic). Damascus: *Publications of the Arab Union*
- Alashqar, A. (1969). Selected scripts of the Abbasi literature (in Arabic). Second Edition. *Dar Al Feker*
- Bergson, H. (2001). Laughter an essay on the meaning of the comic. Translated by Sami Aldroubi and Abdallah Abdel Dayem. *Egyptian General Book Authority. Reading is for Everyone Festival.*
- Bteish, S. (1983). Humor and laughter in Maroun Abboud's literature (in Arabic), First Edition. *Dar Maroun.*
- Balba', A. (D.T). Al Mu'tazila literature until the end of the fourth Hijri century (in Arabic). Egypt: *Nahdat Misr Library.*
- Al Jahiz, A. The Book of Misers. Taha Al Hajri investigation (in Arabic). Eighth Edition. Egypt: *Dar Al Ma'aref*
- Al Jahiz, A. (1987). Rasa'el Al Jahiz, Ali Abu Melhem (...) (in Arabic). First Editon. Beirut: *Dar Al Hila*
- Alhajiri, T. (D.T). Al Jahiz: His life and it's effect (in Arabic). Second Edition. Egypt: *Dar Al Ma'aref.*
- Hamdawi, J. (1997). Semiotics and addressing. World of thought (in Arabic). Volume 52. Third Issue. 79-112
- Sarhan, A. (1965). Abbasi literature studies (in Arabic). Third Edition. Cairo: *Cairo Library*
- Alsandubi, H. (1931). Al Jahiz literature (in Arabic). First Edition. Cairo: *Al Rahmaneya Press*
- Daif, S. (D.T). Art and it's ideology in prose (in Arabic). Second Edition. Egypt: *Dar Al Ma'aref.*
- Abdelhamid, S. (2003). Humor and laughter: New Vision (in Arabic). Kuwait: *Knowledge World Series. National Council for Culture, Arts and Literature. 289*

- Al Ajami, M. (1998). Modern literary criticism and western criticism schools (in Arabic). First Edition. Tunisia: *Dar Mohammad Ali Al Hami*.
- Al Etri, A. (1970). Our laughing literature (in Arabic). Beirut: *Dar Al Nahar*
- Abu Ali, M. (1982). Al Jahiz's mockery of his misres (in Arabic). Second Edition. Amman: *Dar Al Aqsa*
- Alghali, B (1999). Al Jahiz's Mu'tazila rational theology (in Arabic). First Edition, Beirut: *Dar Ebn Hazm*
- Mohammad, F. (1999). The irony in the Palestinian resistance poetry (1948-1993) (in Arabic). Al *Najah Universtiy, Masters Thesis*.
- Alhawal, H. (1982). The irony in the Mazini literature. Egypt: *Egyptian Public Authority*.